من أرشيف الحرب والسلام في سيرة التاريخ الغربي الحديث* (1 من 2)

الشاعر العظيم اليوت والاقتصادي الكبير كينز فهما ان الحلفاء في الحرب العالمية الثانية اختطفوا اللغة والسلام

بوش مثل تابعه بلير سوّغا قتل اطفال العراق من اجل الديمقراطية ولم يعرفا ان الحضارة تدين الغزو كما تدين الديكتاتورية

د. محمد شاهين**

عندما نشاهد مسلسل الرعب اليومي في العراق ليس فقط في شهر نيسان (ابريل) الذي وصفه «إليوت» في مطلع قصيدته المشهورة «الأرض اليباب» على أنه أقسى الشهور على الإطلاق بل على مدى أيام السنة، يتداعى إلى الذاكرة قول محمد حسنين هيكل أن العرب جميعاً لم يحاربوا بمن فيهم عرب أرض الكنانة. ولم يقصد هيكل أن يجرح شعور العرب ولا أن ينتقص من الفروسية العربية، ولكنه فيما أظن كان يومئ على نحو غير مباشر إلى أن الغرب مقارنة هو خريج حروب دموية أبرزها حربان عالميتان راح ضحيتهما الملايين. كان محمد حسنين هيكل يقصد أن الحروب التي خاضها الغرب كانت حروباً إجرامية لا تزال ذكرياتها المؤلمة محفورة في أذهان الغربيين. وقد كُتبت عنها مئات الكتب وآلاف الأبحاث ولا يزال البحث فيها مستمراً لما ينقطع. وعندما وقفت فرنسا وألمانيا ضد شن الحرب على العراق كان الدافع الحقيقي وراء ذلك هو الذاكرة التاريخية التي تثير في نفوس الأوروبيين من أمثال هؤلاء شجون الدمار الشامل الذي يحيق بالناس من جراء حوادث الحرب. والمفارقة الكبرى هنا أن أمريكا التي سوقت مقولة وجود أسلحة دمار شامل في العراق (والتي لم يثبت وجودها إلى اللحظة) تستخدم نفسها أسلحة دمار شامل من نوع أو آخر ويكشف هذا الموقف عما يشبه الانفصام في الشخصية الذي تحدّث عنه «لانغ»، إذ قالت أمريكا بداية للشعب العراقي إنها تريد أن تنقذه من طاغية لكنها تجعله ينسى أنها تستبدل طاغية بطغيان لا يبقي ولا يذر: بالقتل والفتك والدمار الذي ستظل آثاره ماثلة في سماء العراق وأرضه والتي ستمتد معاناة الشعب العراقي من جرائه على مدى عقود تلي.

اليوت.. الارض اليباب.. والحرب العالمية الثانية

لقد هزت الحرب العالمية الأولى ضمير «إليوت» أكبر شاعر في القرن العشرين والذي عبر عن هذه الهزة بقصيدته الشهيرة «الأرض اليباب» (1922). وصور «إليوت» في القصيدة كيف أن الحرب قد أحالت أوروبا وحضارتها ومدنيتها إلى صحراء قاحلة، فقدت أوروبا خلالها روحها وخلقها وإنسانيتها. وقد حشد إليوت في تلك القصيدة ما حشد من رموز وصور استقاها من مختلف المصادر التاريخية والكلاسيكية والدينية والميثولوجية كيما تكون تعبيراً يليق بجلال ما يزال جارياً لكثرة المصادر التي وظفها إليوت في خدمة النص. ومن هذه الأبحاث البحث الذي كتبه الشاعر والناقد الشهير «توم بولين» والذي نشرته صحيفة التايمز اللندنية في ملحقها الأدبي تحت عنوان: «دهاليز خبيثة متعددة»، وهو عنوان اختاره الشاعر الناقد من قصيدة إليوت ذاتها. ويعرض البحث لاكتشاف جديد حيث يقدم مصدراً جديداً من مصادر إليوت، ذلك هو الاقتصادي المعروف «كينز» صاحب أشهر نظريات الاقتصاد في القرن العشرين والذي تبوأ أرفع المناصب في بريطانيا. ومن المعروف أنه هو الذي أنقذ اقتصاد بريطانيا من الانهيار بعد الحرب العالمية، بل امتد تأثيره الإيجابي ليطال اقتصاديات أوروبا كلها. يقول «توم بولين» إن كتاب كينز «التداعيات الاقتصادية للسلام في أوروبا» كان له أكبر الأثر في قصيدة «إليوت» «الأرض اليباب»، وقبل الخوض في هذا الموضوع أود أن أشير إلى ما يقوله بولين في فاتحة بحثه عن إليوت.

يشير «بولين» في معرض بحثه إلى كتاب إليوت «فكرة المجتمع المسيحي» الذي نشر عام 1939، ويشير بخاصة إلى قول «إليوت» فيه أن مجتمع الحزب الحاكم الواحد أو ما يسمى في اللغة الإنجلو– أمريكية «توليتاريان» يحتفظ بمصطلح الحرية والديمقراطية ويمنحهما معناه الخاص بهما ويصبح حقه فيهما بلا منازع مستثمراً العاطفة الجياشة في هذا السبيل. ثم يقتطف بولين حاشية إليوت حول الموضوع وهي أن رسالة ظهرت في صحيفة (التايمز) في 23 نيسان (إبريل) 1939 كان قد كتبها الجنرال الإنجليزي المعروف «جي فلر» والذي كان أحد شخصيتين بارزتين في بريطانيا حضرا احتفالات عيد ميلاد هتلر. ويقول الجنرال في رسالته تلك بصريح العبارة إنه يؤمن إيماناً قاطعاً بديمقراطية موسوليني، لأنها تضع واجب الأمة فوق الحقوق الفردية. ويسمي الجنرال فلر نفسه فاشستياً بريطانياً، ويعتقد أن على بريطانيا لزاماً أن تجاري التيار وتستجيب إلى التغير الكبير في السياسة وتتبع نظاماً فاشستيا في إدارة الحكومة. ويعلق «توم بولين» بقوله أن الجنرال «فلر» لا بد وأنه يعتبر نفسه ديمقراطيا.

ديكتاتورية صدام ومسوغات بلير

كنت قد فرغت للتو من قراءة «توم بولين» وتعليقه عندما استمعت إلى ما قاله «توني بلير» (وقد قال الكثير طبعاً) أمام مجلس العموم البريطاني من أن أطفال العراق قد سقطوا من أجل عراق ديمقراطي. والسؤال الذي أود أن أطرحه هنا وربما يطرحه الكثيرون معي هو: ما الفرق بين طاغية ديكتاتور مستبد يمارس الطغيان والدكتاتورية فعلاً وبين من ينظر إليهما مثل فلر وبلير على أنهما مسوغات. إن عبارة ما لا تصف مثل هذا السلوك أفضل من عبارة الناقد الهندي الموهوب هومي بابا، وهي أن النظر إلى الحقيقة بمشاعر متناقضة ((ambivalenceينبئ أكثر ما ينبئ عن ازدواجية الموقف والفكر والشعور. وإذا ما أنصفت ما قاله محمد حسنين هيكل فإني أود القول أنه قد قصد من وراء مقولته الآنفة إلى أن الغرب قد حارب واستطاع ببراعة القول والتنظير أن يخلق تغطية جوية وأرضية لجرائم الحرب وويلاتها وأن ينسب الحرب إلى فعل ديمقراطي وحضاري. أولم يروج الاستعمار قصة نشر الحضارة وكأنها مهمة ربانية كلف بها الله الرجل الأبيض؟ كما قال داعية الاستعمار كلبننج. في اعتقادي أن محمد حسنين هيكل أراد القول بأن الغرب حارب وقال إنه لم يحارب، بينما العرب لم يحاربوا وقالوا إنهم حاربوا. وبمعنى آخر، فإن الفرق إنما يكمن في عملية التسويق والتسويف أو التعبير.

وعودة إلى إليوت وكينز لنرى كيف أن الأول حاك بمهارة الشاعر الموهوب قصيدة أودع فيها ما خلفته الحرب من خلال سجل رسمه اقتصادي لا يقل موهبة عن زميله، شهد وقائع الحرب بنفسه كما يروي لنا الشاعر الناقد توم بلين في عرضه النقدي. إن صورة الأرض اليباب التي تبدأ بها قصيدة إليوت مستقاة من كتاب كينز الذي جاء حصيلة لمشاركته في صياغة معاهدة باريس للسلام نائباً عن الخزينة البريطانية، إذ لمس كيف أن الحلفاء قد فرضوا شروطهم المهينة على ألمانيا ثم كتب كتابه المشار إليه –ذلك الكتاب الذي أعجب به إليوت. وفي السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1920 كتب إليوت لوالدته:

«هل تدرك أمريكا الحالة البائسة التي يعيشها وسط أوروبا؟ إن الناس هناك جد متشائمين حيال مستقبل ألمانيا وحسب، بل حيال مستقبل العالم أيضا، إذ يقولون إنه لا أمل في المعاهدة ما لم تعدل تعديلاً جوهريا. وبالمناسبة، فأنا أعتقد أن كتاب كينز "التداعيات الاقتصادية للسلام" إنما هو كتاب مهم إذا كان بإمكانك الحصول عليه».

ويلاحظ توم بولين أن صورة البيت المهجور الذي تعصف به الرياح في قصيدة «جيرونشون» التي كانت في الأصل جزءاً من «الأرض اليباب» قبل تعديلها الذي قام به باوند كما هو معروف، إنما هي صورة أوروبا التي خربتها حرب ضروس ومعاهدة سلم انتقامية. وفي القصيدة تظهر شخصية كلمنصو باسم جيرونشون. وكان كينز قد عرف كليمنصو في المفاوضات التي دارت في المؤتمر وكان مأخوذاً بتلك الشخصية التي وصف صاحبها بأنه متقدم في السن ومتعب، لا أمل له في الدنيا إذ جفت معالم الروح فيه، وكان يعامل الموقف بسخرية بالغة. أما نقبته فهي «النمر»، وهي النقبة التي استخدمها إليوت مضيفاً إليها صورة المسيح، إذ تصبح «المسيح النمر» بدلا عن المألوف «المسيح الحمل»، وذلك ليبين كيف أن أوروبا قد كفرت بالمسيحية وهي تمارس حرباً ضروساً. ومن خلال صورة كليمنصو الانتقامية في مؤتمر السلام يعرض لنا إليوت ما خلفته الحرب ليس من دمار على الأرض وحسب، وإنما ما اقترفته من متابعة انتقامها من السكان الأبرياء. وهذا ما يقوله كينز حول الموضوع الذي اشتق منه إليوت صورته الشعرية:

«إن تهميش ألمانيا وتحويل حياتها إلى عبودية لأجيال قادمة وامتهان حياة الملايين من البشر من سكانها وحرمان أمة بكاملها من أن تعيش سعيدة لهو عمل مقيت ومحتقر حتى لو كان بالإمكان القيام به، وحتى لو كان ينطوي على إثراء لحياتنا، وحتى لو لم يكن عاملاً على نشر سوسة العفن في حياة الحضارة الأوروبية. ويموه البعض هذا العمل تحت رداء العدالة، ولو أن تاريخ العدالة طويل ليس أبداً بهذه البساطة. وحتى لو كان الأمر كذلك فإن الأمم لا تمتلك شرعية دينية ولا أخلاقية ولا طبيعية تفرض من خلالها على أطفال أعدائها دفع لقاء ما اقترفه الآباء والحكام من أعمال مشينة!». إن المرارة التي لاحظها كينز متمثلة في كليمنصو هي التي تكتنف جو «الأرض اليباب» ورديفتها «جيرونشون». ومن بين المقتطفات التي يقدمها توم بولين من كتاب كينز منبهاً إلى تأثيرها على إليوت مقتطفا يعرض جو القنوط في باريس أثناء إبرام معاهدة السلام:

«لقد أضحت باريس كابوساً وكل من فيها أصبح قانطاً وخيم جو مأساة متوقعة على المشهد المتردي. لقد أصبح المرء عاجزاً وضعيفاً أمام الحوادث الجسام التي تواجهه. اختلطت مشاعر النأي عن الواقع في القرارات، وكذلك انطلقت الصيحات منددة بالوقاحة والاستخفاف وقصر النظر –جميعها تدلل على أن مكونات المأساة القديمة متوفرة. وبينما كنت أجلس وسط المصائد ((trapالمسرحية في الصالونات الفرنسية داخل فرنسا تساءلت عما إذا كانت مناظر ولسون (المبعوث الأمريكي) وكليمنصو الجامدة هي فعلاً وجوه بشرية أم أقنعة في عرض مسرحي تلعبه دمى متحركة».

كليمنصو والارض اليباب في النمسا والمانيا

لقد كان من الطبيعي أن يستثير مثل هذا الوصف مشاعر إليوت ويحول هذه الاستثارة إلى شعر يمسرح مشاعر السمو والعبث وهي تختلط في «الأرض اليباب». ويتحدث كينز عن الإعياء المخيف الذي أصاب ألمانيا والنمسا وأراضيهما مشيراً إلى زيارته لمقر رئيس المفاوضات، حيث حاك الأقطاب الأربعة فيه بخبث مصير الأرض التي أصبحت يباباً. وقد استطاع إليوت أن يصور جو هذا المقر (مقر كليمنصو) بتأثير بالغ فيه صورة الخراب واليباب التي استقاها من وصف الأرض المحروقة في كتاب كينز والتي يقول الكاتب عنها أنها قد جفت آبارها وأصبحت أرضها غير صالحة للزراعة ولا ينفع معها العزق والحراثة.

وفي الثاني من تشرين الاول (أكتوبر) عام 1919 كتب إليوت لوالدته:

«إنه لمن المؤكد أن ما يسيطر على المؤتمر إنما هو شخصية كليمنصو الذي عرف ما يريد، وقد انجرف ولسون مع الدبلوماسية الأوروبية. كما أن من الواضح أن هذا السلام إنما هو سلام بائس، إذ حاولت فيه القوى الأوروبية أن تحصل على أكبر قدر من الغنائم ممالقة للقوميات الأوروبية الهزيلة التي صنعتها وهيمنت عليها وهذا ما توقعناه. وفي اعتقادي أن ويلسون قد ارتكب خطأ فادحاً بمجيئه إلى أوروبا».

ومن أطرف المصادفات أن ملاحظة إليوت على ولسون في الحرب هي نفس ملاحظة صديقه باوند في الحرب الثانية عندما حاول يائسا أن يقنع الساسة في بلده أمريكا بعدم التدخل في الحرب العالمية الثانية تجنباً لما يمكن أن يحدثه هذا التدخل من دمار. وقد انتقد كينز سياسة الحلفاء اتجاه ألمانيا وفرض عقوبات مالية عليها قائلاً إن مثل هذه السياسة تبتعد كل البعد عن الحكمة التي فقدها سياسيوا الحلفاء وأن هذه السياسة أشاعت حالة من الشلل في وسط أوروبا وشرقها. ووصف انتصار الحلفاء وممارستهم لسياسة الابتزار لألمانيا بعد الحرب بانها سياسة هواة لا بد وأن تؤدي في النهاية إلى ثورة في مكان آخر تنهض من الرماد مثل طائر الفينيق الذي خرج حيا من الدمار. وقد تنبأ كينز بظهور النازية نتيجة تأسيس قوة عسكرية ضخمة مقرها براندنبرغ تجمع حولها موهبة عسكرية تتحرق إلى المغامرة. وقد أشار كينز إلى الأهوال التي خلفتها الحرب على سكان أوروبا نتيجة الجوع والهستيريا والحالات العصبية واليأس الذي يحرم المرء من موت هادئ يموت فيه، كما يقولون، ميتة ربه. وقبل أن يختتم توم بلين تعليقه يشير إشارة خفية ذكية إلى الجنرال فلر وتنظيره فيما يخص واجب الأمة وحقوق الفرد فيقول إن أولئك الإسبرطيين الذين يمارسون لعبة الحرب والسلام بعد الحرب يقومون بائسين بقلب موازين الحضارة نفسها بينما يحاولون جاهدين إشباع حاجات الفرد وتعطشه للحقوق الفردية. وهذا ما يجب أن يثير كوامن الغضب فينا ويدفعنا إلى أن نحشد الشجاعة والمثالية ونجند الشرفاء من أجل الوقوف في وجه الشر.

إن أكبر تأثير ينسحب على قصيدة إليوت من كينز وكتابه المذكور هو ما يرد في خاتمة القصيدة. وهو تأثير خفي صاغه إليوت بذكاء من مطالعته لمفهوم السلام عند الحلفاء الذي انتقده كينز بشدة حتى أصبح يرى ذلك المفهوم مفرغاً من كل إيجابياته. وقد أيقن إليوت مثل كينز أن الحلفاء اختطفوا (highjacked) اللغة والسلام معاً. ولم يتبق أمام إليوت إلا أن يتوجه إلى لغة غير لغة الحلفاء التي هي لغته ولغة كينز، فاختتم إليوت قصيدته التي لا تزال تعتبر قصيدة الأجيال التي تركت بصماتها على الحداثة وما بعد الحداثة بكلمة سنسكريتية: «شانتيث» Shantith التي يحتار القارئ في تفسيرها. وأقل ما يقال فيها إنها تعني مناشدة الرحمة والرأفة والعطف كأصداء تعكس معنى للسلام مغايراً لممارسة الحرب والانتقام!

الحرب ممأسسة في بنيان التاريخ الغربي

ماذا نقرأ إذن في بحث توم بولين عن إليوت وكينز وما يجمعهما من خلفية مشتركة يشكل فيها الاقتصادي الموهوب إيحاء فريداً من نوعه للشاعر العظيم؟ إن قراءات كثيرة تتداعى في هذا العرض، منها أن المؤسسة الحربية العسكرية مؤسسة راسخة البنيان في التاريخ الأوروبي، تتطور آلتها الحربية وتتطور معها جنباً إلى جنب مسوغات الحرب ومنطق اللامنطق إلى أن تضيع قضية السلام إلى الأبد وتتوه في دهاليز التاريخ على حد قول إليوت الذي اقتطفه توم بولين. وتحضرني في هذا الموقف قصتان شخصيتان حصلتا معي في بريطانيا: الأولى في بداية السبعينات، إذ دعاني صديق لي مختص في علم النفس إلى حضور محاضرة للعالم المشهور «لانغ» صاحب القول في قضية انفصام الشخصية. وكانت المحاضرة في معهد «تافستوك» وسط لندن حيث معهد الدراسات النفسية الذي كان صديقي منتسباً إليه. وقد اكتظت القاعة بالحضور رغم ارتفاع سعر تذكرة الدخول. وفرغ «لانغ» من المحاضرة وأذكر أنني لم أفهم منها شيئاً وعللت نفسي بأن الموضوع بعيد عن اهتماماتي واختصاصي. وقامت سيدة إنكليزية تجلس أمامي وطرحت أول سؤال على المحاضر وقالت إنها تعجز عن فهم تعريف الانفصام في الشخصية، موضوع المحاضرة وموضوع عدد من دراسات المحاضر. ورد لانغ على السيدة أنه هو نفسه لا يستطيع تقديم التعريف. ثم أردف سائلاً ومعتذراً للسيدة مستفسراً منها إذا كانت متزوجة وإذا كان لديها أسرة، وأجابت السيدة أن لديها طفلا في السادسة وأنها تسكن في عمارة غرب العاصمة لندن في الطابق الخامس. قال لانغ لها: لو حضنت طفلك وأنت واقفة معه في شرفة الشقة وقلت له: أنظر يا بني. لولا أنني أحبك لألقيت بك من هذه الشرفة!

ما زال رئيس أقوى بلد في العالم يظهر أمام شاشات التلفزيون مردداً دون ملل أو كلل: أنظر يا شعب العراق الحبيب. لولا أننا نحبك أولاً ونريد لك الحرية لما غزوناك. بل ويمكننا أن نتصور قاذفات القنابل العنقودية وغيرها وهو يهمس كلما ضغط على الزر لتنطلق قنابل الموت على شعب العراق قائلا: تفضل يا شعب العراق: قنابل حب وحرية، وبعدها أو ربما قبل انطلاق القنابل يشرب نخب شعب العراق. وباختصار، لأول مرة يتجسد أمامي ما قاله لانغ عن الانفصام في الشخصية بعد ثلاثة عقود من الزمن ونيف.

أما القصة الثانية فقد حصلت معي قبل أعوام قليلة، إذ كنت في زيارة رسمية لجامعات الشمال في بريطانيا بقصد تنسيق برامج التعاون بين جامعتنا وتلك الجامعات. وكنت أزور تلك الجامعات بمعية رئيس الجامعة عندما كنت أعمل نائباً له وأقمنا في فندق بمدينة هدرسفيلد على مقربة من محطة القطارات الفكتورية. وفي بهو المحطة أقام أهل المدينة تمثالاً ضخماً من البرونز لرئيس وزراء بريطانيا السابق هارولد ولسون. وكان التمثال مغطى بستارة من القماش ينتظر حضور توني بلير للمشاركة في الاحتفال بإزالة الستار. وفجأة ظهر توني بلير وأقام قليلاً في الفندق نفسه الذي نقيم فيه. وقد ألقى بلير كلمة احتفالية برئيس الوزراء السابق وكانت أرملة ولسون تقف على مقربة منه. في تلك المناسبة أثار بلير إعجابي وإعجاب صديقي بما اعتقدت فيه آنذاك من صدق العواطف والتعبير والوفاء المطلق لزميله ولسون الذي كان رئيساً للوزراء أيام كنت طالباً في بريطانيا.

ثمة فرق هائل بين بلير الذي تحدث ببلاغة وفصاحة أمام تمثال زميله ملوحا بيده للتمثال الماثل أمامه وكأنه يتمنى لو بعث ولسون حيا ليصافحه ويعانقه ويهنئه، وبين بلير الذي لم يطلب من دبابة صغيرة أن تقف أمام المتحف في بغداد لتصد هجوم المارقين على حضارة عمرها آلاف السنين. فهل كانت حماية المتحف أصعب من حماية آبار النفط في أرجاء العراق؟ وهل يمكن أن ننسى ذلك العراقي الذي ظهر على شاشة التلفاز وهو يبكي ويتقطع حسرة ويتوسل إلى الجندي الأمريكي أن يساعده في حماية المتحف فيرد عليه الجندي بأن الأمر لا يعنيه وبأنه موجود في بغداد لمحاربة العسكريين وليس المدنيين حتى لو كانوا لصوصاً ينهبون رموز الحضارة الإنسانية على مرأى من عينيه ومسمع أذنيه؟ مسكين ذلك العراقي الذي استنجد بذلك الجندي، فقد غاب عن باله مشهد مياه دجلة التي تغير لونها بسبب ما ألقى فيها التتار من كنوز المعرفة.

والفرق بين تينك الغزوتين هو فعل التتري الواضح في مقابل صمت الأمريكي والذي تمثله شخصية أورليك في رواية ديكنز العظمية «الآمال العظام». ومنذ أن ظهرت تلك الرواية في مستهل الستينات من القرن التاسع عشر إلى الستينات من القرن العشرين والكل يظن أن تلك الشخصية ثانوية جداً إلى أن بين نقاد القرن المنصرم أنها شخصية مهمة لما لها من علاقة رئيسية بالشخصية الرئيسية التي هي محور الرواية. إن أورليك شخصية دموية «على السكت»، ما فتئت تعترض على الدوام سبيل «بيب» الشخصية الرئيسية وتفرض عليها مضايقات لا حد لها. وكان السؤال الذي طرحه النقاد هو: لماذا يصمت بيب عن أفعال أورليك؟ وحتى عندما قتل أورليك أخت بيب، لم يكلف شقيق القتيلة نفسه عناء إبلاغ الشرطة. والسر هو أن أورليك يمثل الوجه الآخر للشخصية الرئيسية (Alter ega) الذي كانت تخفيه عن الناس. فلكم تمنى بيب أن تموت أخته مثلاً إلى أن جاء أورليك ونفذ المهمة التي كان يعجز هو عن إنجازها. وهكذا يقوم أورليك نيابة عن بيب بأداء الواجب دون أن يكون الأخير طرفا فيه فعلاً.

إن هجوم اللصوص وعمليات النهب والسلب لم يكن حدوثها بخاف على أحد. وهل يمكن أن نصدق أن حدوثها قد خفي على أكبر أجهزة المخابرات في العالم. قبل أشهر من الغزو ذكرت لي طالبة عراقية يعيش أهلها جميعاً في بغداد وتدرس دراسات عليا في الجامعة الأردنية أنها لا تخشى الغزو الأمريكي البريطاني بقدر ما تخشى عصابات اللصوص المرابطة على الحدود منتظرة أن تعم الفوضى حتى تنشط، وأن تلك العصابات ستعيث فساداً في العراق بمجرد أن تتسرب إليها أنباء انعدام النظام. إن ما حصل من موجة النهب والسلب والسطو على الممتلكات لم يكن أمراً مفاجئاً البتة. لكننا ننسى أحياناً ما بين الغزو والنهب من أرضية صلبة مشتركة فيها من المؤاخاة ما يجعل الطرف الواحد يغض البصر عما يقترفه الطرف الآخر. وكم كان بود المشاهد لذلك الموقف المأساوي الذي يتوسل فيه العراقي قائد الدبابة ويذرف الدمع طالباً منه التدخل أن يقول للعراقي إن إحجام ذلك القائد عن تقديم العون إنما ينسجم مع الرسالة التي جاء من أجل إنجازها جملة وتفصيلاً!

هتلر الحريص على الحضارة

وفي هذا المقام، يروي التاريخ أن هتلر قد حرص أشد الحرص على تجنب ضرب رموز الحضارة وأن طائراته التي قصفت لندن وغيرها من المدن البريطانية أشد القصف على مدى سنوات طوال لم تطلق قذيفة واحدة باتجاه المتحف البريطاني، وأن قذيفة واحدة سقطت خطأ على مقربة من كنيسة «سانت بول»، ويقال أن هتلر قد حمد الله على أنها لم تلحق بالكنيسة أذى. ويبدو أن هتلر النازي كان يعتقد بأن الحضارة ملك للجميع في كل الأزمنة والأماكن، وأنها فوق الشر أياً كان فاعله لأنها تسمو فوق المكان والزمان والعرق والجنس وكل الفروق. ولا بد أن العالم بأكمله من أمريكيين وبريطانيين وأستراليين وغيرهم قد تساءل عن العلاقة بين رموز الحضارة ونظام صدام حسين ورموز نظامه. بل إن الحضارة تدين الديكتاتورية. لكن، يبدو أنه قد فات العراقي الحزين ما لم يفت القائد الأمريكي من أن الحضارة تدين الغزو بقدر ما تدين الدكتاتورية. ومن هنا كان ذلك القائد منسجماً مع نفسه ومع رسالته ورمز غزوه كل الانسجام. وباختصار، فإن تفسيراً ما لا يمكن أن يبرر ما حدث سوى ما قاله بلير من أن سقوط أطفال العراق من أجل عراق ديمقراطي حر، وأن نهب المتاحف أيضاً إنما هو من أجل عراق ديمقراطي حر. فهل قرأ بلير مسرحية جون درايدن الذي اشتهر بتجديده في المسرح الكلاسيكي في القرن السابع عشر؟ لقد كتب جون درايدن تلك المسرحية، على سبيل التجديد، على منوال مسرحية شكسبير التاريخية «أنتوني وكليوباترا» التي صور فيها حب أنطونيوس لكليوباترا وحربه التي خاضها من أجلها بين روما والإسكندرية. وكان ما فعله درايدن هو أنه حاول اختصار الحدث فجعل الحب بين أنطونيوس وكليوباترا، واختصار الزمن فجعله فترة دخول أنطونيوس إلى الإسكندرية، واختصار المكان فجعله الإسكندرية، وانتهى من كل ذلك إلى مسرحيته المعروفة بعنوان«كل شيء في سبيل الحب». أفلا يذكرنا هذا العنوان بعنوان الغزو: «كل شيء في سبيل الحرية، يا عراق أفندي» مع الاحتفاظ بحقوق الطبع للكاتب جون درايدن؟

ت. اس. اليوت

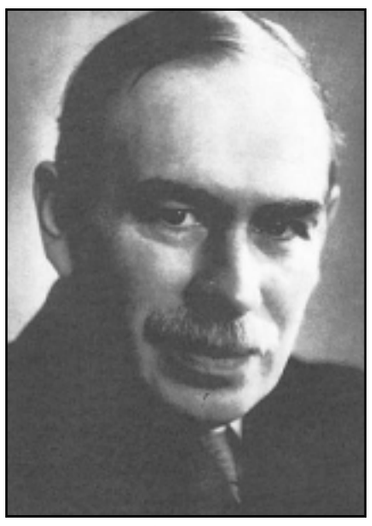

جون ميليارد كينز

هتلر

ثمة فرق هائل بين بلير الذي تحدث ببلاغة وفصاحة أمام تمثال زميله (هارولد ولسون) ملوحا بيده للتمثال الماثل أمامه وكأنه يتمنى لو بعث ولسون حيا ليصافحه ويعانقه ويهنئه، وبين بلير الذي لم يطلب من دبابة صغيرة أن تقف أمام المتحف في بغداد لتصد هجوم المارقين على حضارة عمرها آلاف السنين....

* كُتِبَتْ قبل تاريخ 2006/7/12 ـ أي قبل الحرب على لبنان

** ناقد وأكاديمي أردني